جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com
BM-Publisher

توظيف الاستطراد في (حكاية الفتى مفتاح)

ندى بنت صالح بن علي أبا الخيل*
المملكة العربية السعودية / جامعة شقراء

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:
الاستلام: 2019/5/20
تاريخ التعديل : 2019/6/18
قبول النشر: 2019 /8/5
متوفر على النت:2019/12/15

الكلمات المفتاحية :
الاستطراد
حكاية الفتى مفتاح

الملخص

ل هـذه الدراسـة سـلّطتْ الضـوء على الاسـتطراد في حكايـة الفتى مفتـاح لأبـي مـدين، ذلـك الأديـب والكاتـب الصـحفي، الـذي عـاش حقبـة مـن الـزمن قضـاها في تـنقلات وأسـفار، وعـى مـن خلالهـا طبـائع الشـعوب وعاداتهـا، فقـدّم تلـك الحكايـة كسـيرة ذاتيـة احتـوتْ على الكثير من الأحـداث والوقـائع والمواقـف التي تشـهد بأن التغير والتقلب سنّة في الحياة.

ومـن بـاب الاهتمـام بـالأدب السـعودي الحـديث، أحصـتْ الباحثـة مـا لـه علاقـة ويعطي صـورةً واضـحة لمفهـوم الاستطراد المستحسن ومقومات نجاحه عند أبي مدين.

ولـيس مـن شـكّ في أن الطبيعـة ا لإنسـانية تحـبّ التنويـع في تنـاول الموضـوعات، لكسـر الملـل في الـنفس، إضـافة إلى مـا يكتسـبه الـنص مـن حركـة وحيويـة وإشـراقة يلبيهـا الاسـتطراد متى مـا جـاء بـالأدوات التي تعـين على نجاحه.

ويشـتمل البحـث على مقدمـة ومـدخل وتعريـف بالأديـب وبالاسـتطراد، ثـم تتـوالى مباحـث الدراسـة حيـث: الاسـتطراد المستحسـن، والثرثـرة والحـديث المطـوّل، ثـم الاسـتطراد عنـد أبـي مـدين: دوافعـه، أنواعـه، وظائفـه، القصـدية تركيبـه، طـول

© جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2019

المقدمـة

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على الرسـول الأمـين محمد بن عبد الله وصحبه أجمعين، وبعد:

مـن المعلـوم أن السـيرة الذاتيـة أحـد أهـم الفنـون النثريـة؛ إذ خلّدتْ أحداثًا ونقلتْ كثيرًا مما قد يغيب عن المرء معرفته أو الإحاطة به .

وأبو مدين أحد كتّاب السّير الذين منّ الله عليهم بطول العمر؛ فعاشـوا وشـاهدوا حقبًا زمنيـة انتقلـتْ فيهـا مجتمعـاتهم مـن مجتمعـات فقيـرة تمزقهـا الحـروب ويفتـك فيهـا الجهـل إلى مجتمعـات متطـورة ومتعلمـة أنعـم الله عليهـا بـالخيرات مـن كل مكان.

فـأبو مـدين كتـب سـيرته الذاتيـة مـن خـلال كتابـه الموسـوم بـ (حكايـة الفتى مفتـاح)، وزينهـا بالاسـتطراد البـديع العـذب الـذي يـؤنس النفـوس ويسـامرها، بأسـلوب سـهل مقـرّب ممتـع، تزينـه اللطافة في الخروج من موضوع والدخول بآخر، فاستطراد أبي مدين استطرادًا مطبوعًا أبعد ما يكون عن الكلفة والاستجلاب.

من هنا وقع اختياري على هذه السيرة - أيضًا- لما عُرف من شأن أبي مدين في الثقافة والأدب والصحافة، حيث كُرّم في المهرجان الـوطني للتراث والثقافـة وتـم اختيـاره الشخصـية الأدبيـة للعـام 1439هـ /2018م.

*الناشر الرئيسي : E-mail : Nad210@yahoo.com

فضلًا عن ما يقدّمه كتاب الحكاية من وثائق سياسية واجتماعية وتاريخية تكشف جوانب عدة لتلك الفترة التي عاشها الكاتب .

كما أنه – الكتاب - قدّم نموذجًا واضحًا للاستطراد البديع المستحسن، الذي يقوي نسق الكتابة ويعطيها نكهة خاصة قد تكون سمة ينفرد بها المؤلف.

ولا شك أن مجال دراستي نابع من أنه لم تقع بين يدي دراسة مستوفية لخصائص الاستطراد البديع، حيث لم تكن تلك الدراسات سوى شذرات وإلماحات هنا وهناك، لم تلج في تفصيلات الاستطراد، وآلياته وشروط نجاحه.

وقد استندتْ هذه الدراسة على أبرز المناهج البحثية في الأدب والنقد العربي، حيث المنهج الوصفي، والمنهج التأريخي والاجتماعي- كل في مكانه حسبما تستدعيه طبيعة البحث .

ويقوم البحث على مقدّمة، وأربعة مباحث تناولتُ في المبحث الأول التعريف بالكاتب، ومعنى الاستطراد لغة واصطلاحًا.

وفي المبحث الثاني سلّطتُ الضوء على تقنيات الاستطراد كفنّ كتابي بديع، وتناولتُ الفرق بين الثرثرة المستحسنة والثرثرة المستهجنة والحديث المطوّل.

وفي المبحث الثالث تناولتُ دوافع الاستطراد عند أبي مدين وأهم أنواعه موضوعيًّا وفنيًّا؛ أما في المبحث الرابع فقد خصصته لوظائف الاستطراد عند أبي مدين، القصدية، التركيب، طول الاستطراد وقصره.

ثم خلصتُ بعد ذلك إلى الخاتمة التي لخّصتُ فيها أهم النتائج التي انتهتْ إليها هذه الدراسة.

وقد أنعم الله عليّ بإكمال البحث، والانتهاء إلى النتائج التي أسأل الله العلي القدير أن تكون فيها الفائدة المرجوّة، إنه وليّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: التعريف بالكاتب، ومعنى الاستطرد لغة واصطلاحًا:

1- التعريف بالأديب:

هو " مفتاح بن أمحمد بن عبد الله بو مدين، وحين جاء إلى الحجاز مع والدته (يرحمها الله) سمّاه خاله – عبد الفتاح - وأبعد هو الألف ليصبح اسم والده محمدًا، ولعلّه نقلها من مكانها إلى لقب العائلة؛ ليصبح (أبو مدين)، ويذكر الأستاذ عبد الفتاح أن جذور عائلته ربما كانت من المغرب الأقصى، فهو على كلّ حال من شمال أفريقيا[1]".

وقد "وُلد في بنغازي في ليبيا عام 1344هـ، حفظ نصف القرآن الكريم في وقت مبكر من طفولته، وهاجرت أسرته إلى المدينة المنورة، درس في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، ثم انصرف إلى القراءة مما كوّن فيه القدرة الأدبية والملكة الكتابية؛ كل ذلك دفعه للعمل في الصحافة.

شارك في إصدار جريدة الأضواء، وعمل في مجلة الرائد وغيرها[2]"، وقد كان رئيسا للنادي الأدبي بجدة ما يقارب ربع قرن من الزمان.

وللأديب العديد من المؤلفات أذكر منها ما يأتي:

1- وتلك الأيام - تجربة صحفية، صدر في جدة، عام 1406هـ.
2- في معترك الحياة - دراسات أدبية، صدر في جدة، عام 1403هـ.
3- أمواج وأثباج - دراسات نقدية أدبية، الطبعة الأولى صدرت عن جريدة الأضواء عام 1378م، والثانية في عام 1405هـ عن النادي الأدبي في جدة.
4- هؤلاء عرفت – أحاديث عن بعض من عرف وخالط، صدر في جدة، عام 1421هـ.

وغيرها من المؤلفات التي خلّدت ذكر الأديب، وكشفت عن سجلّه الأدبي الحافل.

ولعلي قبل أن أختم حديثي عن سيرة الأستاذ، أود أن أكشف عن جانب مهم من حياته، فقد مرّ الأديب بأطوار حياتية مؤلمة، فطفولته كشفت عن يُتم وفقر وأسفار أُجبر عليها لطلب لقمة العيش؛ لعلّ ذلك جعل منه شخصًا عصاميًا صبورًا يكافح أتعاب الحياة.

2- الاستطراد:

أ/ الاستطراد لغة:

جاء في لسان العرب، في مادة (طرد) أنَّ " اطَّرَدَ الشيء: تَبِعَ بعضه بعضًا وجرى... واطَّرَدَتِ الأشياءُ إذا تَبِعَ بعْضُها بعضًا[3]".

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

والاستطراد لغة:" مصدر استطرد الفارس لقرنه، إذا طرد فرسه بين يديه، يوهمه الفرار، ثم يعطف عليه على غرة منه، وهو ضرب من المكيدة[4]".

ب/ الاستطراد اصطلاحًا:

عرّفه أبو هلال العسكري بأن" يأخذ المتكلم في معنى فبينا يمرّ فيه يأخذ في معنًى آخر؛ وقد جعل الأول سببًا إليه[5]".

وعرّفه ابن معصوم المدني بأن " يكون الناظم أو الناثر آخذًا في غرض من أغراض الكلام... فيخرج منه إلى غرض آخر[6]"، ومن العلماء والنقاد من اشترط في الاستطراد العود إلى الكلام الأول.

وليس من شكّ في أنّ الاستطراد في الكلام بمنزلة الحلية عند النساء، ولكن دون إفراط أو تفريط، فهو فاصل يحيي النص ويبعث فيه النشاط ويطرد الملل، بل لعله من مسببات استيعاب النص.

ولكن أين من يعي ويجيد الخروج من النص بسلاسة ثم يعود إليه بمهارة لا يشعر معها المتلقي بصدمة الخروج والعودة للموضوع.

ج/ الفرق بين الاستطراد والتخلص:

هناك فرق بين الاستطراد والتخلص ؛ فالاستطراد أن يكتب الكاتب في موضوع ثم يأخذ في موضوع آخر ثم يعود إلى موضوعه الأول- كما تقدّم.

أما إن لم يعد إلى موضوعه الأول فهو تخلص،" وفي الاستطراد يمر ذكر الأمر الذي استطردتَ به ... ثم تتركه وتنساه وتعود إلى ما كنتَ فيه كأنك لم تقصد ذاك، وإنما عرض عروضًا، لم يقصد بذكر الأول التوصل إليه، ثم يعود إلى ما كان فيه، فإن لم يعد فهو تخلص[7]".

فأنا مع من يؤكد من النقّاد على ضرورة العود إلى الموضوع الأصل – الأساس؛ وإلا لأصبح الفن الخطابي فنًّا تخليصيًّا ليس في عداد الاستطراد.

المبحث الثاني : تقنيات الاستطراد:

1- الاستطراد المستحسن:

يعدّ الاستطراد من أهم التقنيات الفنية في الكتابة، وهو ظاهرة فنيّة تقليدية لها أصولها وجذورها في الخطابات العربية والإسلامية، وبدون أدنى شكّ ليس كل استطراد مستحسن، فهناك الاستطراد الممل المطوّل للكلام بلا فائدة مرجوّة.

أما الاستطراد البديع فهو" غير مذموم ولا مرفوض لدى علماء البلاغة والبيان، بل هو صفة محمودة في الكلام طالما أعطى فائدة وحصل معنى جديدًا يفضفض المعاني والأفكار السابقة، بل اعتبره بعضهم نوعًا من أنواع الفصاحة[8]".

وبما أنّ الاستطراد فنّ بديعي يرغبه القارئ؛ لابدّ من تحديد فنيّاته وجمالياته، كي لا يقع الأديب في فخ الإطالة غير المرغوبة لدى القراء.

حيث أن التنويع في المواضيع يعطي حركة (ديناميكية) للنص، فتقطع الملل وتبعث في النفس البهجة والسرور، فتلك في نظري مراوغة مطلوبة في الكتابة.

وما أجمل أن تأتي التقنية الاستطرادية أصيلة في الكاتب وليستْ طارئة عليه؛ حيث أن الكاتب في تلك الأثناء يشبع حسّه الجمالي في ذات الوقت يشبع فضول القارئ بالتفصيلات التي يرغب بمعرفتها.

فالاستطراد البديع هو مجال التفاصيل المثيرة، التي تحيي النص وتبعث فيه الحركة، وفي رأيي أن الاستطراد من دواعي جلب القراء؛ وذلك لتنوع المادة المطروحة أمامهم.

من هنا يأتي النص الذي ينعم بتقنية الاستطراد كاسرًا للملل في نفس القارئ، ومنشطًا إيّاه للقراءة.

2- الثرثرة والحديث المطوّل:

لا شكّ أننا عندما نكون أمام كتابة في السيرة الذاتية فإننا - حتمًا -سنكون أمام استطراد سيري، والاستطراد السيري ظاهرة تنموية للنص المحكي يرغب بها القارئ، ولكن لا بد أن يحذر الكاتب من الوقوع في فخ الثرثرة الممقوت، الذي يمثّل تطويلًا للكلام بلا فائدة تذكر، ومن المعلوم أن الثرثرة تكون محبّبة للنفس عندما تأتي والحكمة تزين جنباتها، أما الإطالة التي لا تعود على القارئ بكثير فائدة؛ هو في تمام الغنى عنها، بل هي عيّ في الكلام وعيب في الكتابة.

فما أجمل الثرثرة التي تنمّ عن سعة في الثقافة والاطلاع، وتكشف عن عظيم تجارب مرّ بها الكاتب، وإن كانت السير الذاتية تقوم على الاستطراد؛ فذلك لأن مجالها مراعاة التفاصيل التي تقدّمها ذاكرة المؤلف.

وفي رأيي أنّ الاستطراد لدى الكاتب، يكشف – غالبًا- عن مدى تأثره بمن عرفوا بالاستطراد في تاريخ الكتابة العربية، وأول من

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

يقع في الذهن من أولئك هو الجاحظ، عميد الاستطراد في الكتابة العربية، حيث اللطافة في الخروج من الموضوع وهذا المطلب الأول في الاستطراد.

فأكرم بالكاتب الذي يبتعد عن الثرثرة والحديث المطول الذي يمتحن الكاتب من خلاله قوة صبر القارئ على القراءة، وجلده على المتابعة، تلك هي الثرثرة المستهجنة والمستكرهة التي يأنف عنها كبار الكتاب والأدباء؛ فهي لا تخدم فكرًا ولا تطرب وجدانًا ولا تسبح بخيال، إنما تساق الكلمات والعبارات سوقًا يفضي بها إلى ركام دون غاية تلملم شتاتها.

المبحث الثالث: دوافع الاستطراد عند أبي مدين، وأنواعه:

1- دوافعه:

لكل تقنية كتابية دوافعها وأسبابها، ولعلّي هنا في حديثي عن أسباب ودوافع الاستطراد عند أبي مدين، ألخصها في الآتي:

أ/ الظروف المعيشية المتقلّبة:

عاش أبو مدين يتيمًا فقيرًا، باحثًا عن لقمة العيش منذ صغره، فالمعاناة جعلتْ منه إنسانًا صبورًا مكافحًا شجاعًا مضحّيًا عرف كيف يواجه الحياة وضغوطها.

أضف إلى ذلك كثرة أسفاره وعدم استقراره جعل منه شخصًا مجرّبًا ومعايشًا لفئات كثيرة من الناس، ولم يكن بمنأى عن الحروب بكل ما تخلفه من دمار وفقر وعوز.

ساند كل ما ذكرته آنفًا ذاكرة جيدة تحصي الكثير من المواقف والأحداث وأوصاف الناس ومشاعرهم وأخبارهم، وهذا كلّه تمثّل أمام المؤلف عند الكتابة والسرد.

ب/ نمط الكتابة المطلق:

لم يُخضع أبو مدين قلمه لنمط كتابي محدد، بل جعل له مطلق الحرية في سرد سيرته الذاتية، فهو يطلق العنان لنفسه وللقارئ؛ لنفسه في أن يكتب دون قيود، وللقارئ في أن يقرأ وهو مستمتع بالتنقل من فكرة إلى فكرة دون ملل أو سأم، والقارئ في حكاية الفتى مفتاح، يشعر وكأن الأديب يسامره، فلا يملك إلا أن يتمّ القراءة مسترسلًا فيها دونما انقطاع.

إذ لا يمكن أن يجمع الكاتب بين الاستطراد والخضوع التام لنمط كتابي صارم، فالاستطراد يكون في الكتابات التي يمنحها الكاتب كبير انطلاق وحرية، ولا يلاحق عباراته كي يقنّنها ويخضعها للتكرير وإعادة الصياغة مرة تلو الأخرى إنما تمتاح الذاكرة ما يجلب الأنس للقارئ، في ظلّ استحضار الكاتب للقارئ معه وجلوسه بجانبه؛ مخاطبًا إياه وممازحًا قلبه ووجدانه، وناثرًا أمامه طرفه وغرائبه واستفساراته.

ج/ الإصلاح والتوجيه والنقد:

لم يكن أبو مدين يعيش في معزلٍ عن أبناء مجتمعه، بل هو منهم كاللبنة في البناء كل لبنة تقيم أختها، من هنا جاء إحساسه بالمسؤولية والحرص على مصلحة وطنه ومواطنيه يقف مع المصلح ويساند النزيه، ويقوّم الخطأ عندما يشاهده واقعا عليه أو على غيره، ليس أنانيًا بل المصلحة عنده فوق كل شيء.

عاش أبو مدين حياته معترفًا لأهل الحقّ والمعروف بجميلهم، عاتبًا على من استمرأ خطاءه وتمادى في غيّه وظلمه، وتلك رسالة حملها تطل بين الفينة والأخرى من خلال أسطر كتاباته.

فقلمه يصلح ويوجّه ويعلّم، يلمح القارئ هذا بأسلوب ممتع محبّب للنفس، كما في قوله: " ... لكن القسوة تشحذ النفوس وتربي، فالشظف يبني الإنسان ويقوي فيه الإرادة، والاعتماد على النفس بعد الله عزّ وجلّ، على حين أن الترف يدفع إلى الدعة والخمول والتسيب، وإلى العبث وعدم المبالاة ودروس الحياة كثيرة، والإنسان البصير يأخذ منها عبرًا وتجارب وخبرة..."[9]، وهو استطراد تعقيبي جاء بعد قصة تكلّم فيها عن القسوة التي عاناها من أخيه إلا أنها دفعته للعمل الشريف، وهو آنذاك ابن السنين العشر.

ولك أن تنظر في حديثه عن الصحبة الكريمة:" وليس قيمة المتاع فيما تملك وتنال، وليست في المال والنّشب، ولكنها في العافية أولًا، ثم في الوداعة والصحبة الكريمة، بعيدًا عن الأحقاد والتشاحن والقلق والعناء، تلك هي الحياة الأليفة اليسيرة التي نجد فيها ذلك اليسر.. الذي لا عسر فيه ولا صخب ولا ضيق..."[10] "، كلمات وعبارات تستحثّ القارئ على الحرص عند انتقاء الرفيق، والبساطة في الصحبة، بعيدًا عن أدران القلوب؛ فليس الأصحاب مجالًا لها.

د/ إمتاع القارئ:

ما من شكّ في أن الاستطراد المستحسن هو الذي يمتع القارئ ويبهج نفسه، بالتنقل من واحة إلى واحة، دون الشعور ببتر الموضوع أو إعلان بولوجه، وتلك النفس البشرية تأبى التقريرية

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

وتمقت المباشرة في كل شيء لا بد من التمهيد له، والدخول فيه بذكاء وحذق.

وأبو مدين يُقرُّ في أكثر من مرة أنه وقع في الاستطراد، أو أنّ الاستطراد ساقه إلى الحديث عن هذا الغرض أو ذاك، كما في قوله :" أعود بعد هذا الاستطراد الذي ربما طال عن الجمارك والثقافة وعقابيلها ، وهو حديث.. لعله ممل[11]".

حيث يخبرُ بأن الاستطراد هو من أخذ به، وكأنه جاء عفويًّا دون طلب أو ملاحقة، كما في قوله: " أعود إلى مضيفي وقد أخذني الاستطراد أو قل شغلني عن حديثي الخاص[12]".

وفيما يبدو ما جاء هذا الاستطراد إلا رغبة من الكاتب في الترويح عن القارئ، وكسرًا للملل في نفسه.

هـ/ قصدية الكاتب:

أبو مدين يستطرد استطرادًا عفويًّا غير متكلّف، ولم يأتِ هذا الاستطراد من فراغ بل من الواضح أنه كان يقرأ ويتأثر بكُتّاب كانوا يستطردون، وإن لم يذكر ذلك صراحة في حكايته، ولكنّ القارئ يلمس ذلك.

ولعلّ قناعته بهذه التقنية الكتابية وهذا النسق التعبيري جعل من استطراده استطرادًا مستحسنًا، بل إنّ هذه القناعة التي لدى الكاتب عزّزها ما يمتلكه الكاتب من ثقافة واسعة، وقراءات متنوعة، وذاكرته التي ساعدته كثيرًا في سرد العديد من التفاصيل التي تجيب عمّا يدور في ذهن القارئ من استفسارات يغذيها الفضول وحُبّ المعرفة.

2- أنواعه:

يتضح من خلال الاستقراء لكتاب حكاية الفتى مفتاح، أن الاستطراد عند أبي مدين نوع من تجميل الكلام تلخّص في إدخال مادة ليس لها صلة مباشرة بالموضوع، وما جاءت إلا لآداء وظيفة، وتحقيق غرض يصبو إليه الكاتب، ويرمي إلى تحقيقه في ذات القارئ.

وتلك الوظيفة تتحقق من خلال المادة والموضوع المنتقى من قبل الكاتب، لذلك عند تصنيفي لأنواع الاستطراد عند أبي مدين، أستطيع تصنيف أبرز الأنواع موضوعيًّا وفنيًّا، كالآتي:

من أهم الموضوعات التي تناولها أبو مدين في استطراداته، الموضوعات التالية:

أ/ الاستطراد الاجتماعي:

وذلك يتضح عند حديث المؤلف عن العلاقات الاجتماعية، وطبيعتها، وأنّ قيمتها ليست إلا فيما تتمتع به من صحة بدن وعافية، ثم هي في الصحبة الكريمة الوفيّة، التي تعطي صورة رائعة للتوافق في العلاقات" التي يظلّلها الإخاء والوفاء والحبّ، الذي لا ينغصه أنانية ولا أطماع ولا حسد وبغض ولا مصالح، وتلك هي الحياة الرخيّة التي يحياها البسطاء العقلاء الذين يألفون ويؤلفون، في توازن وانسجام ونكران الذات، بعيدًا عن التعقيد والأثرة والشُّح...[13]".

وما من شكّ في أن كل إنسان يحلم بالوفاق والحياة الوادعة الهانئة التي يظلّلها الوئام وراحة البال، وليس من سبيل إلى ذلك دون صحبة كريمة وفيّة تجعل من الحياة حياة جميلة تحفّها الطمأنينة والسعادة التي هي مطلب كل إنسان على وجه هذه البسيطة.

فمثل هذا الموضوع يمسّ عناية شريحة كبيرة من القراء، وبخاصة عند نسجه في أسطر لا يشعر معها المتلقي بقطع الموضوع الأساس للولوج في هذا الاستطراد الانسيابي الذي يجيد الكاتب سبكه وصياغته.

فهو عند حديثه عن صحبه في المطار لم يكن قاصدًا الحديث عن أهمية الصحبة الكريمة في حياة المرء، ولكنّ الحديث جذبه دون أن يشعر هو ذاته بذلك!

أيضا نلمح هذا النوع من الاستطراد عند حديثه عن عادات الشعب الليبي[14].

ب/ الاستطراد الاصلاحي:

وهو استطراد نقدي الغرض منه الإرشاد والتوجيه- حسب رؤية الكاتب- كما جاء في حديثه عن النظام الذي تفرضه الدول عند دخول بعض الرسائل من دول أخرى سواء كانت هذه الرسائل تحمل كتبًا أو خلافها إذ يقول:" ... وأعلن اليوم وأعلن دائمًا أنني لستُ ضد النظام، ولكنني معه وأريد النظام المرن، واللوائح التي تيسّر ولا تعسّر، فأنتَ أصدر لوائحك وأنظمتك وسهّل لي إجراءاتك، وأنا أعبر الحدود، أو يصلني بالبريد شيء ليس ممنوعًا. وليس منطقيًا وليس مقبولًا ولكنه شيء مرفوض في كل المقاييس وفي كل مكان، حتى عند الأمم المتخلّفة أن يصلك شيء يسير وأنتَ لستَ تاجرًا ولستَ مقيمًا، وحين تراجع بالحسنى أن تتسلّم شيئك اليسير، ولا مانع أن تدفع عليه ضريبة إذا كان

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

ذلك يستحق في أي عرف..."[15]، ويمضي في وصف استيائه مما تجريه جمارك بعض الدول عند السماح للكتب الواردة عبر المنافذ من تعقيدات وعقابيل تعيق الحراك الثقافي وتصعّب على المثقفين المشاركة بنتاجهم الثقافي في الفعاليات والمعارض والمؤتمرات.

فالكاتب في هذا المقطع الاستطرادي يلفتُ النظر إلى ضرورة التخلي عن الإجراءات التطويلية التي تعقد التبادل الثقافي، وليس له من مصلحة سوى حرصه على نقل المعارف والثقافات والفنون من دولته وناديه في مدينة جدة إلى العالم العربي برمته.

أيضًا لفتات الكاتب الإصلاحية والتوجيهية نراها حين ينصح بضرورة التزود بالصبر والتجمّل والقناعة في هذه الحياة [16]

ج/ استطراد الثناء والتمجيد:

تعتبر الإشادة بالأفعال والأقوال التي تستحقّ الإشادة من نبل صاحبها ورقي أخلاقه وجمال روحه وذاته، بل إن طبيعة النفس السوية تأبى على نفسها عدم الإشادة والإكبار لمن يستحقّه.

والإشادة عند أبي مدين في استطراداته لا تخرج عن إشادة في أحد اثنين: إما إشادة بدولة، أو إشادة بأشخاص، ولا بأس من إيراد نموذج لكل واحد منهما، ففي استطراده الإشادي يُكبر ما تقدّمه دولة مصر لأشقائها، ولعموم العرب من الأيادي البيضاء التي تصوّر الكرم المصري، ها هو يقول عنها:" ... فهي صاحبة الصدر الرحب، وهي تتحمل الغرم وتوفي وتضحي، وفاء لعروبتها ودورها، وهي لا تصدّ قاصدًا محتاجًا إلى العون، فلا أبخسها حقها، ولا أنكر مواقفها العربية والإسلامية، فليستْ جاحدًا الفضل العطاء والمغارم، وقضية فلسطين الكبرى والحروب من أجلها.. التي دفعتْ فيها مصر الغالي قبل الرخيص لأكبر شاهد، ثم دعم الشعوب على استقلالها من سيطرة المستعمرين بالجاه والعتاد كليبيا في حربها مع إيطاليا والجزائر مع فرنسا وغيرهما، ومواقفها متواصلة؛ لأنها قلب العروبة النابض ومركزها الذي يحسب له الحساب في المجتمع الدولي..."[17].

إذ بعد هذا الاستطراد يعود أبو مدين للحديث عن دخوله إلى ليبيا وما دار بينه وبين موظفي الجمارك على الحدود المصرية الليبية.

تلك إشادة استوقف من خلالها الكاتب القارئ ليبث له ما في نفسه تجاه مصر، وما يراه من ضرورة الإشادة بمواقفها العظيمة مع جيرانها من الدول العربية.

ومن إشادته بالأشخاص، تلك الإشادة التي تحدّث من خلالها عن شخصية قيادية ليبية مجاهدة ذِكْرها يرد على كلّ لسان عربي، إنها شخصية المجاهد عمر المختار (1858-1931هـ)، " ... أما الكبار، فإنهم يذكرون الجهاد ضد إيطالية الغازية الغاشمة الفاشستية لبلادهم، في عام 1911م وقد استمرتْ في برقة عشرين عامًا، بقيادة المجاهد الشيخ عمر المختار، الذي كان يتحرك خلال عقدين من بين شعاف الجبل الأخضر مع المجاهدين البواسل لقتال الغزاة المعتدين، ولم تنته في برقة .. إلا بعد أن قُبض على الشيخ المجاهد وأعدم شنقًا، وهو يدافع عن وطنه .. ببسالة وشجاعة قلّ نظيرها ونظيره، وقد بلغ الثمانين من العمر.. أو تجاوزها!

وتكلّم عمر المختار:" قولوا لهم : لن تمضوا بمجد شعبنا وكبرياء أرضنا.. عودوا إلى بلادكم، فالريح تلهو بدخان المدخنة، والحُرّ ليس يشترى .. ولا يبيع وطنه[18]".

وهذا استطراد إشاديّ لم يقصده الكاتب لذاته وإنما جاء عفوًا .. تمجيدًا لأسد المجاهدين في ليبيا –عمر المختار.

أما أبرز الاستطرادات الفنية عند أبي مدين، ما يأتي :

أ/ الاستطراد التعقيبي:

وهو الذي من خلاله يعقب على موضوع سبق، ويستطرد في حديثه عن شيء يمس الموضوع الأساس ويتصل به اتصالًا غير مباشر، فهو حين تكلّم عن قسوة أخيه الأكبر عليه، لا يريد الاستعطاف بتاتًا، ولكنه يريد كشف تحمله وصبره، وعنفوانه، ثم يأتي بحديثه عن القسوة، وكيف أنها تربي النفوس وتشحذ الإرادة" لكن القسوة تشحذ النفوس وتربي، فالشظف يبني الإنسان ويقوي فيه الإرادة، والاعتماد على النفس بعد الله عزّ وجلّ، على حين أن الترف يدفع إلى الدعة والخمول والتسيب، وإلى العبث وعدم المبالاة، ودروس الحياة كثيرة، والإنسان البصير يأخذ منها عبرًا وتجارب وخبرة..."[19].

فهو من خلال هذا التعقيب يملي ما يراه مناسبًا للقارئ، حاثًا إياه على الحذر من الترف والرفاهية لما تودعه في النفوس من حبّ الدعة والخمول والكسل، فالنفس لا بدّ لها من زاجر

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

يردعها ويربها على الصبر والقناعة والسعي في الأرض وتحمّل المشاق.

وهذا التعقيب ليس مقصودًا لذاته، بل إنّ القصة التي سردها الكاتب جرّتْ إليه، وهذا النوع من الاستطراد يزيد من اهتمام المتلقي ويؤثّر فيه ويبني لديه القناعة التامة بما يقوله الكاتب.

وقد يعقّب بطرفة كما في حديثه عن (الجوالين) التي كان يجمعها الجيش الألماني آنذاك[20]

ويهدف الكاتب من خلاله الترويح عن القارئ، وكسر الملل في نفسه، وإعادة نشاطه للقراءة ومواصلة الاطلاع، ولعلّ –فيما يبدو- أنّ هذا النوع من الاستطراد هو من أكثر أنواع الاستطرادات التي يرغب فيها القراء ويسعدون بها؛ لما فيها من الامتاع والترويح عن النفس، وهذه طبيعة في النفوس جُبلتْ عليها، ها هو الكاتب يتحدّث عن حلب ثم ينشق الحديث عن حلب إلى الحديث عن المتنبي (303 -354هـ)، إذ يقول عنها متدرجا بالحديث إلى بغيته" ... لأني أريد رؤية هذه المدينة التاريخية العريقة، فاسمها عندي يقترن باسم المتنبي وشعره القوي الرائع، الذي كان يلقيه من تلك القلعة الشامخة، التي سكنها سيف الدولة الحمداني، وحول المتنبي أعداؤه وحاسدوه..."[21].

ثم يقول بعد أن دخل حلب: " ... فقد كنتُ مشغولًا بالمتنبي وزمانه، هنا كان يجلس وكان ينشد شعره جالسًا، وهنا كان القوم في القلعة، وأمامه كان الأمير الحمداني، ورجال اللغة والنحو ... وها هو الشاعر لا يبالي؛ لأنه يعرف قيمته، ولأنه الأوحد في هذا الفن الذي يباهي به :

أنَا الذي نظرَ الأعمى إلى أدَبي

وأسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بهِ صَمَمُ[22]

وقوله:

وَمَا الدّهْرُ إلا مِنْ رُواةِ قصائِدي

إذا قُلتُ شِعْرًا أَصْبحَ الدّهرُ مُنْشِدًا... [23] [24]"

هكذا يمضي الكاتب مع أبيات المتنبي وحكمه، إلى أن يقول:" لستُ أريد أن أسبح مع هذا الشاعر الذي شغل الدنيا والناس منذ ألف ومائة سنة بشعره وذاته، ولو تركتُ لنفسي هواها، لملأتُ صفحات من الاستشهاد بشعره، ولكني لست مطالبًا بذلك، وإنما أنا أتحدث في هذه الورقات عن (أيامي) إذن لندع المتنبي وشعره للذين يدرسون ويبحثون وينقبون في لغته .. ألفاظًا ونحوًا وصرفًا..."[25].

فهو قطعًا ما أورد تلك الأبيات وانساق في حديثه عن المتنبي وأشعاره- فيما أرى- إلا إعجابًا بتلك الموهبة الشعرية عند المتنبي، ولنقل القارئ من رتابة القراءة إلى التحليق في خيالات شعرية تستجلب الراحة والأنس وتروّح عن النفوس وتنفض عنها غبار الملل.

وكذلك نجد هذا الاستطراد يتجلى عند حديثه عن صفة طالما امتاز بها العربيّ عن غيره، ألا وهي صفة الكرم [26].

تلك هي أهم أنواع الاستطرادات عند أبي مدين، ومما لا شكّ فيه أن لظروفه الحياتية وطبيعة الحياة الاجتماعية وثقافاته المتعددة الأثر في ميله للكتابة في تلك الأنواع.

المبحث الرابع: وظائف الاستطراد عند أبي مدين، القصدية، التركيب، طول الاستطراد وقصره:

1- وظائفه:

يأتي الاستطراد عند أبي مدين محققًا لعدد من الوظائف التي يرمي إليها حيث كان الخطاب السردي هو الأنسب لتحقيقها، ويحسن بي إجمالها فيما يأتي:

أ/ إبراز المهارات:

الوظيفة الأولى وهي متعلقة بالمُرسِل، وما يحققه الاستطراد لمنشئ الخطاب حيث استطاع المرسِل أن يبرز مهاراته في بناء النسيج الاستطرادي مستعرضًا من خلاله العديد من ثقافاته اللغوية والاجتماعية والسياسية، أضف إلى ذلك مخزونه الديني ولم يفت عليه إسداء آرائه ورؤاه النقدية والتوجيهية .

وكما هو واضح فإن تلك السيرة تضمّنتْ" لحشد هائل من الأخبار، التي أوردها المصنّف شواهد حيّة من الواقع المعيش على الأفكار التي ساقها نظريًّا. إنها أخبار متنوعة شديد التنوع، تنزع إلى شمول العناصر الفكرية، وتشي بالوقع الذي استمدّتْ منه[27]".

فكأنه يكشف لقرائه ومتابعيه عمّا وهبه الله تعالى من قدرة على البراعة في الاستطراد العفوي دخولًا وخروجًا بالموضوع دون الإحساس بشيء من التكلف في تداخل الأفكار[28].

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

وأيّ كاتب يستمتع باستعراض ما لديه من مهارات كتابية ورصيد ثقافي ومعرفي يدرك – تمامًا - نهم ا لقارئ وفضوله لمعرفة تفصيلات ما يتحدّث عنه.

ب/ ترويح المتلقي:

الاستطراد العفوي الذي ينسدل على القارئ من خلال الخطاب اللغوي لأبي مدين، يحقّق وبدون شكّ متعة وفائدة لدى المتلقي للخطاب.

وقد نجح أبو مدين في استعماله "المعرفة لتوجيه المتلقي الوجهة التي يراها مناسبة لأجل استقبال ما يرد بعد ذلك من أفكار[29]"- وفي نظري – أنّ تلك سمة ترويحية للمتلقي؛ إذ تحقّق لدى المسرود له انسيابية ورود الأفكار في ذهنه، دونما مراوغة أو عناء.

رأينا ذلك في عدد من النماذج السابقة، كما أن الكاتب برع من ناحية أخرى بالقدرة على إقناع المتلقي بآرائه ورؤاه النقدية، آخذًا بيده طوعًا لا كراهية لما يراه هو الأصوب والأجدر والأنفع[30].

ويعزّز قناعة المتلقي بما يمليه عليه الكاتب إدراكه لمدى حرص أبي مدين على المصلحة والفائدة، وإخلاصه وصدقه في إسداء النصيحة.

من هنا أسهم الاستطراد عند أبي مدين بجعل تلك السيرة أداة للإمتاع والإفادة، والجمع بين الجد والطرافة، والحكمة والثقافة، فجاءتْ تلك السيرة جامعة لأقطاب متنوّعة تمسك بلب القارئ وتتملّكه لما تتمتع به من تركيبة أخّاذة تشع في النفوس روح المتعة والترويح وتطرد الرتابة والملل، انظر إليه حين يخاطب القارئ مروّحًا عن نفسه:" ... والحياة في جبال أوربا مكلفة، ولكن في جبا ل الطبيعة الرائعة في الشرق تعيش بأقل التكاليف، وكثيرًا ما أداعب زوجي حين أكون في ذلك المناخ الجميل، فأقول لها : يكفي أن يقضي المرء بقية العمر في هذا المناخ الرائع الجميل، في بيت شعر وعنده كيس حَبّ مطحون، وأمامه بقرتان تعطيان الدرّ والزبدة، وكفى.. لا نريد تلفازًا ولا راديو، ويكفي صندوق من كتب في ركن بيت شعر، وقطعة سلاح.. يدافع بها الإنسان عن نفسه وقت اللزوم، فترد وهي ابنة المدينة: لا ! هذه حياة لا تناسبني، وأنا أخاف ولا أستطيع حلب البقر وأخاف من الحنشان والعقارب، ومن الذئاب وما إليها! فأضحك وأنا أسمع ..."[31].

فتلك مقطوعة نثرية للدعابة أوردها الكاتب ترويحًا للقارئ، وكأني به يقول له: روّح عن نفسك وخُذ مستراحًا قبل مواصلة قراءة القصة التي كان يسردها الكاتب عندما ذهب متوجهًا إلى أهله في الجبل، وكيف فرح وفرحوا بلقائه، بعد رحلة مضنية مع أتان أعرج!

ج/ الهدف الإصلاحي:

ولعلّي حين أفرد للإصلاح وظيفته في تلك السيرة، فلا شكّ في أن الإصلاح مرتبط بالاستطراد – غالبًا- وذلك لما يتطلّبه الإصلاح من توجيه وكشف للحقائق وتعزيز بالشواهد والبراهين؛ وذلك كلّه لا يتحقّق إلا بتوظيف الاستطراد والاستعانة بفنياته؛ للوصول إلى المتلقي، وكما قال شرف الدين الطيبي: ويأتي الاستطراد تحريضًا على قبول الموعظة[32].

ويعلم أبو مدين أن النصيحة لن تؤدي إلى الإصلاح ما لم يحسن المرء الطريقة التي يسديها بها؛ فالنفس الإنسانية مجبولة على عدم الميل إلى صيغ الأمر والنهي المباشرة، ولكن في تلك السيرة نجد بأنّ الاستطراد يؤدي وظيفته الإصلاحية مراعيًا نفسية المتلقي، وذلك نجده في أكثر من موقع من تلك السيرة، كما في حديثه عن الصاحب وحاجتنا الماسّةإلى التوافق في العلاقات:" التي يظلّلها الإخاء والوفاء والحبّ.. الذي لا ينغّصه أنانية ولا أطماع ولا حسد ولا بغض ولا مصالح، وتلك هي الحياة الرخيّة التي يحياها البسطاء العقلاء الذين يألفون ويؤلفون في توازن وانسجام ونكران للذات..."[33]، هذا فيما يخص إصلاح النفس ودواخلها، أما ما يخصّ المطالبة بإصلاح ما يراه من ثغرات فإنه لا يتوانى عن ذلك، كما في مطالبته بإصلاح الأنظمة البيروقراطية في بعض الدول التي قام بزيارتها[34]، كذلك عتبه على الدولة العثمانية عندما حرمتْ العرب من التعليم العربي وكان سببًا في تخلّف الكثير منهم[35].

من هنا نعلم أن لكل خطاب لغوي أهداف ووظائف يؤديها، وإلا لأصبحت الكتابة مجرد رصّ لكلمات وعبارات وجمل لا وظيفة لها ولا غاية تؤديها وهذا ما ينبغي للكاتب اللبيب أن يحذر منه.

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

2- القصدية:

أبو مدين كاتب يسوق الأحداث " من حيث مصادرها التكوينية كذاكرة الكاتب وتجربته [36]" فطبعي أن تأتي استطراداته ذات أوشاج -وإن كانت خفية – مع الموضوع الأساسي.

فلا اجتزاء يحسّه المتلقي مع استطراد الكاتب، ولعلّ ما ساعده على ذلك هو أنّ تصميم الكاتب لسرده السيري بعامة جاء بـ " بنية روائية صلبة التماسك التكويني لبنية الخطاب[37]"، من هنا يشعر القارئ بالتعالق وروابطه التي تُرى من طرف خفي.

فلو لم تكن تلك الأواصر الخفية متوافرة بتكتيكاتها وآلياتها التي قدّمها الكاتب للقارئ؛ لما وُجد هذا الانسجام وتلك الانسيابية في استطراد كاتب الحكاية.

وليس من بدّ عند تقديم استطراد ناجح بمقاييسه الفنية والنقدية، أن يتكئ على آليات تحكم التسلسل البنائي والخطابي للنص المكتوب.

وهي آليات يراعيها الكاتب –غالباً - عفوًا وإبداعًا لا يتكلّف وجودها أو تقنينها في النص، وإلا لما وجد القارئ تلك المتعة والانقياد التام لقراءة النص دونما أي كلل.

فتوافر تلك الأوشاج موهبة يتشبّع بها الأديب فيصدّر حكاياته السيرية بنمط كتابي يكشف عن تلك الموهبة المهداة، ولو كانت تلك الموهبة عند كل كاتب لما رأينا الصدود عن بعض ما يكتب أو ينقل من أحداث أو سِير حياتية.

فكاتب كأبي مدين يدرك تمامًا أنّ مثل تلك التعالقات التي تتسدل بخفاء من الموضوع الأساس إلى موضوع الاستطراد هي مهمة وأساس في نجاح الدخول بموضوع الاستطراد والخروج منه، إذ أنه يعلن للقارئ وفي أكثر من مرة أنه يستطرد معه وبه، كما في قوله: " ... أعود إلى مضيفي وقد أخذني الاستطراد أو قُل شغلني عن حديثي الخاص[38]"، فلا ضير عند الكاتب من التصريح للقارئ بذلك لأنه يعدّ القارئ سميرًا له.

وانظر إليه في قوله أيضًا في موضع آخر من الحكاية: " ... أعود بعد هذا الاستطراد الذي ربما طال، عن الجمارك والثقافة وعقابيلها، وهو حديث لعلّه ممل[39]".

وأكثر ما يحذره مؤلف الحكاية الاستطراد وإطالة الكلام في موضوع قد لا يستهوي القارئ، أو يثير في نفسه الملل؛ لذا ينحرف مباشرة بمسار الحكاية إلى ما يستثير اهتمام القارئ ويحرك في نفسه الفضول من جديد.

3- تركيب الجمل ووصفها:

لا يفوتني في هذه الدراسة التي خصصتها للاستطراد عند أبي مدين أن أسلّط الضوء على تراكيب الجمل في الاستطراد ووصفها، وفيما يأتي سأورد أهم ما لمحته حول الجُمل تركيبًا ووصفًا:

أ/ الأفعال المضارعة:

النص السيري نص ماضوي ولكن أبا مدين يكثر من استخدام الأفعال المضارعة، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنّ الأفعال المضارعة تقرّب الزمن وتشعر القارئ بآنية حدوث الفعل، فالجملة الفعلية بأفعالها المضارعة " تحمل شحنة الانفعال الذي يقرّب الحالة التاريخية[40]"؛ وتحيي النص وتجعل منه نصًّا ديناميكيا متحركًا،حيويًّا، كما أنّ طبيعة الأحداث التي سردها الكاتب تتطلب هذا النوع الزمني من الأفعال.

سيرة ضمتْ بداخلها العديد من الأسفار والتنقلات لطلب العيش، والكثير من الكد والكدح، أضف إلى ذلك ظروف الفقر والحرب التي تكالبت عليه في حياته، ثم ما عاناه بعد ذلك من وفاة والدته وطلاقه من زوجه ثم زواجه بأخرى... وغيرها من أحداث نامية تتطلب هذا النوع من الأفعال؛ فالأفعال المضارعة تنقل الحدث والصورة بسرعة ودقة، كما لو كنتَ أنتَ من يرى المشهد أو يعيشه.

والغريب في ذلك أن تتالي الأفعال المضارعة قد يفوق المعتاد لكثرته وتتابعه، أنظر إليه في حديثه عن ضيافة المرأة البدوية :" ... فتختار حولي –خروفًا- وتأتي به إلى البيت، وتكلّف الجار الجالس مع الضيف بذبح الشاة، وتدخل إلى بيتها لتضع ما يسمونه – خصا- وهو رواق يقسم البت...[41]".

هكذا يُكسب الفعل المضارع النص شعورًا بالآنية ويمنحه الحياة والحيوية، لا يستطيعها فعل في زمن آخر.

أبو مدين عاش حياته متطلعًا نحو المستقبل، برؤى استشرافية يناسب الحديث عنها ويكشف طبيعتها الفعل في زمنه المضارع.

ب/ الجمل الخبرية :

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

من الطبعي أن تغلب الجمل الخبرية على الإنشائية في أيّ كتابة سيرية، إذ هي تقوم على الإخبار والتذكر والاسترجاع، وسرد الأحداث كما تمليها مخيلة الكاتب.

إذًا فالجمل الإنشائية مجالها ضيق في مثل هذا النوع من الخطابات اللغوية، فالإخبار هو الأصل وأساس الكثير من كتابات السير الذاتية؛ فالكاتب يريد نقل ما لديه من الأخبار والأحداث والقصص، عبر هذا النوع من الخطاب .

ولكنّ أبا مدين عندما صاغ تلك الجمل الخبرية أدرك جيدًا " أنّ الاستمتاع الجمالي في النص يتأتى من حركة الفكرة بين تراكيب النص[42]"؛ لذلك جاءتْ تراكيب جمله مميّزة له يعرفه القراء بها، ها هو على سبيل المثال يقول: "... ولكن الكرم العربي لا يقاس عليه، فقد رأيتُ وسمعتُ عن كرم القوم في الجبل الأخضر وعند البادية عمومًا شيئًا لا يكاد يُصدق، بخلاف سكان المدن الذين لوثتهم المدنية والتحضر، وليسوا سواء...[43]".

فالجمل الخبرية تشبع حاجة الكاتب وتلبي رغباته في نقل ما لديه، بل إن تلك الجمل هي السبيل إلى رضا المؤلف وقبول القارئ.

وحين ترد الجمل الإنشائية فإنها تجئ على استحياء، كما في قوله: " ... ولكن لا يعقل أن يقال لك: هات رخصة توريد، وهات فاتورة بالقيمة...[44]"، هكذا يأتي فعل الأمر متتاليًا معبرًا عن الحالة الانفعالية لدى الكاتب آنذاك وفي موقفه مع الجمارك الذي أثار استياءه مما لقيه من تعقيدات حيال كتاب كان يريد إدخاله عبر الحدود التونسية.

ج/ الجمل الاعتراضية:

أبو مدين يفهم قارئه ويجيب على استفساراته ويوضحها بطريقته الخاصة التي تملي عليه متى وأين يأتي بهذه الجمل التوضيحية بطريقة أبعد ما تكون عن الاستجلاب أو التكلّف؛ وهذا دليل أكيد على حرصه بأن يكون القارئ معه بكل تشعبات أحاديثه، ولكي لا يشغل القارئ نفسه بتتبع المعاني فتفوت عليه متعة الحديث معه ومتابعته.

ومن نماذج تلك الجمل الاعتراضية قوله: " ... ويسموه هناك الشلّاق – وهو القطيع من الغنم، ... وتدخل بيتها لتضع ما يسمونه خصا – وهو رواق يُقسم به البيت ...[45]".

هكذا نرى حرص الكاتب على وضوح ما يورده من ألفاظ أمام القارئ، إذ لا يرغب بأن تكون نصوصه ذات قوالب يصعب فهمها، وليست الضبابية أو التعمية مما يروق لأبي مدين، بل هو من أشدّ الأدباء نفورًا عن التعقيد وما يجرّه من ويلات تذوب معها متعة القراءة.

د/ الإكثار من ضمائر المتكلم:

أكثر أبو مدين من تلك الضمائر لشدة التصاق الأفكار والأحداث بذهنه، فهو يسردها مباشرة كما لو كانت أمامه؛ فهو يعي – تمامًا – أنّ " الألفاظ في الكلام البليغ لها مقصد خاص، إما لنغمتها وسهولتها، وإما لمعناها، أو هما معًا، ولا يكون مرادفها صالحًا لأن يحلّ محلها[46]"، فأيّ تعبير يوحي بقرب الكاتب من قارئه؟ إن لم يشبعه بضمائر المتكلم التي يهمس بها السارد للمسرود له.

ومن ذلك قوله: " ... ولو تركتُ لنفسي هواها، لملأتُ صفحات من الاستشهاد بشعره، ولكني لستُ مطالبا بذلك، وإنما أنا أتحدّث في هذه الورقات عن أيامي...[47]".

هكذا تأتي ضمائر المتكلم متتالية؛ لأن كتابة السير انعكاسات لمشاعر ذاتية، وانفعالات فردية؛ وربما كان وراء ذلك أيضًا حماسة الكاتب للمشهد أو الموقف الذي يتحدّث عنه.

وتلك سمة واضحة يلحظها القارئ منذ مباشرته القراءة في تلك السيرة " فهذه السيرة الذاتية استعانتْ في كثير من جوانبها بضمير المتكلم؛ لتكشف عن خوالج الذات وإرهاصاتها؛ حيث قادنا الكاتب إلى وصف معاناته وما وجده من مشاق في دروب الحياة.[48]"، وبخاصة ما واجهه من جهل وفقر وحرب في بداية نشأته؛ مما جعل منه عصاميًّا مكافحًا وصبورًا.

هـ/ التراكيب العامية:

تظهر عند أبي مدين تراكيب عامية، فيأتي بأمثال أو كلمات وعبارات عامية؛ وربما كان ذلك لقناعته بأن تُنقل الأمثال كما هي بنصها الذي سُمعتْ به، ولكن مهارة أبي مدين جعلتْ منه كاتبًا استطاع أن ينسج العامي مع الفصيح، فيلتحمان بصورة لا يمجّها الذوق المحبّ للتراكيب اللغوية الفصيحة.

من ذلك قوله: " ... لذلك أجد في الأمثال التي تردد على الأسماع هناك: حتى لو تذبح لي ثور بلا شاهي مانك مشكور[49]"، فالشاي شيء أساسي في الضيافة الليبية، وهذا المثل العامي يكشف إلى

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

أي حد يعد الشاي ضيافة مهمة بعد الأكل، بل إن البادية يعيبون على المضيّف عدم تقديمه للشاي بعد الطعام.

ومن تلك الأمثال أيضًا:" ... المهم : رائحة أبو علي ولا عدمه، كما يُقال في الأمثال العامية[50]"، وكذلك قوله حين وصل أهله وصعد الجبل، بعد عناء السفر وكان ينادي ففرح فرحة غامرة حين جاءه الرد :" نحن هنا .. احنا هنا[51]"، ولكنها شهادة حق تقال في تلك التراكيب العامية أن الكاتب أجاد نسجها مع التراكيب الفصيحة فأصبحتْ حلّة خطابية معبّرة عن الواقع الذي عاشه الكاتب.

و/ التوسط في طول الجمل:

فالجمل عند أبي مدين ليست بالطويلة التي تُمل، ولا بالقصيرة التي يكثر التوقف خلالها، ولعلّ تلك الجمل متوسطة الطول جاءت ملائمة لطبيعة الحياة آنذاك، وفيما يبدو لي أن أثر الصحافة جاء جليًّا في عدم الميل إلى الجمل ذات النفس الطويل.

فمن الطبعي أن نجد كاتب الحكاية يميل إلى التوسط في طول الجمل؛ فهو كاتب معاصر اشتغل في الصحافة فترة من الزمن. يقول أبو مدين: " وأحمد الله إليه، فقد علمتني الحياة كثيرًا، ومن هذه الدروس الصبر على المكاره والتجمل والقناعة، والنظر إلى من هم دوني، وفي التوجه الإسلامي المزيد من الحث على تحمل الشدة، والاتكال على الله.. والسعي في الأرض...[52]".

وكثيرًا ما يفصل الكاتب بين تلك الجمل بنقطتين، ولعلّه يقصد بالنقطتين معاني محددة، ولكن الأرجح هو أنه يريد من القارئ الوقف عندها والسكوت وحبس الصوت كي يسترجع المتكلم نفسه، وإن كنتُ ممن يؤيد هذه الظاهرة لكن لابد من معرفة أماكن الوقف، وما هذا إلا دلالة واضحة على أن الكاتب يدرك أثر الأصوات على تراكيب الجمل، وتلك ازدواجية مطلوبة بين اللغة المكتوبة والصوت المنطوق؛ بالتالي يطال تأثيرها المعنى العام .

كما في قوله: " ولا يكون ذلك كذلك في أغلب الأحيان .. إلا من خلال القسوة، والقسوة عامل للازدجار..كما يقول أبو الطيب، ولكن ما يعنيه المتنبي .. ليس حالي وظروفي وقسوتها...[53]"، وفيما يبدو لي أن الحديث هنا عمّا مرّ به من ألم وقسوة ويتم وفقر وعوز؛ دعاه إلى أن يضع تلك النقط، لتمثّل تلك النبرة الحزينة، فالنبرة الحزينة تستدعي الهدوء والتؤدة والتوقف، فكأن وضع النقط يظهر تلك النبرة على النص المكتوب.

وإن كنتُ أرى أن النقط عند الكاتب جاءت كثيرًا؛ ليتمثل القارئ المعنى، ويتأمله؛ وربما كان مرجع ذلك لطبيعة المؤلف حيث الهدوء والتروي والأناة.

ومما أذهبُ إليه هنا أنّ الاستطراد في الحكايات السيرية يجئ مستحسنًا ومطلوبًا متى ما توشّح بوشاح التروي وطابع المسامرة الهادئة، التي يهمس من خلالها الكاتب همسًا في أذن القارئ، وهذه ميزة تحسن في مقامها، فلكل مقام مقال كما يقال.

فتلك أهم ملامح تراكيب الجمل وأوصافها عند أبي مدين، حيث صبّتْ جميعها في خدمة الاستطراد؛ مما جعله استطرادًا مستحسنًا تلقفه القارئ بكل سرور؛ فهو مع الاستطراد الذي يكسبه المتعة ويستجلب له الأنس.

4- طول الاستطراد وقصره:

عند النظر في استطرادات كاتب الحكاية، نجدها استطرادات متوسطة الطول، فلم يكن أبو مدين حريصًا على إطالة الاستطراد، بل قد يجيء استطراده خاطفًا سريعًا يتعمد الكاتب إيقافه! كما في قوله عندما كان يتحدّث عن الحكم العثماني للعرب :" ... ولستُ بصدد نقد الحكم العثماني وحرمان العرب من التعليم العربي وتخلّفهم، فهذا جانب آخر.. لا ننكره وخطأ سجله على الأتراك التاريخ، ... [54]"، ثم بعد الحديث بأسطر قليلة يعمد إلى إيقاف الاستطراد في حديثه عن الدولة العثمانية ! بقوله :" ولستُ بصدد الحديث عنها؛ لأنه ليس من شأني ولا تخصصي، وإنما أتحدّثُ عن رحلة وسياحة عابرتين[55]"، وكأنه أُوقع في الاستطراد ثم تجنب الاسترسال فيه.

وقد يقول البعض ناقدًا على الكاتب عدم الإطالة في استطراداته: بأن الإطالة مع الأخذ بمقاييس إجادتها دليل على قوة الطبع وتمكّن الموهبة وغزارة الثقافة وكثافة الذخيرة اللغوية؛ ولكني أقول : أجمل بالاستطراد أن يكون معقولًا في حدود الاعتدال؛ حتى لا يتسرب الملل إلى نفس القارئ، وقد يطول به المقام فينسى الموضوع الأساس، وهنا يكون مأخذًا على الكاتب، والأمثلة في تلك الحكاية كثيرة ولا مجال لتكرار النماذج، بل فيما مضى من استشهادات كفيلة بأن تعطي تصورًا واضحًا لاعتدال الكاتب في استطراداته[56]".

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

وقد أكون محقّة في أن تأثّر الكاتب بالكتابة الصحفية التي تستدعي الكثير من الإيجاز وعدم الإسهاب والبعد عن الإطالة السبب وراء ذلك.

الخاتمة :

بعد الدراسة الفنية والجمالية للاستطراد في حكاية الفتى مفتاح، أستطيع تلخيص نتائج البحث في النقاط الآتية :

1- استطراد أبي مدين يدل على تميّز وشمولية وسعة ثقافة.
2- ذاكرة الكاتب أعانته كثيرًا في استطراداته.
3- لا يميل أبو مدين إلى إلزام نفسه بمنهج كتابي واحد؛ لذا نجده يعمد إلى الاستطراد متى وكيفما أراد.
4- من خلال الدراسة والبحث اتضحتْ العفوية في استطرادات أبي مدين؛ مما منحها الكثير من الحُسن والقبول والوضوح" في حين تميّزتْ هذه السيرة لدى عبد الفتاح أبو مدين بقوة حضور التقنات السردية؛ مما يسّر عرض أحداثها وتفاصيلها بصورة واضحة للمتلقي[57]".
5- اللطافة في الخروج من الموضوع ثيمة عند أبي مدين؛ ربما ذلك جاء تبيعة لعمله الصحفي لزمن طويل.
6- جميل في الاستطراد أن يجمع بين الموضوعين هدف بناء: كنصيحة أو وصيّة أو غير ذلك[58].
7- أبو مدين حين يستطرد، فإن استطراده ليس فوضى كلامية أو تشقيقًا للكلام دون هدف؛ بل هو أديب أريب يعرف متى وأين وفيما ولِم يستطرد؟
8- استطراد أبي مدين قدّم لنا عددًا من الصور الثقافية والاجتماعية والسياسية .
9- استطاع أبو مدين أن ينفذ إلى أعماق القراء، بل ويؤثر فيهم؛ من خلال طريقة استطراداته التي يراعي فيها طبيعة ا لقراء وميولهم واهتماماتهم؛ فجاءتْ استطراداته نوع من المراوغة المحبّبة في الكتابة.

فتلك هي أهم ما امتازتْ به استطرادات الكاتب، وفي رأيي أن النقاط السالفة هي مفاتيح ناجحة لمن يريد أن يقتفي أثر من سبقوه في هذا المجال، حيث أجادوا وأبدعوا.

الإحالات والحواشي:

(1) ينظر حكاية الفتى مفتاح، أبو مدين: 19- 20.
(2) موسوعة الأدباء، بن سلم: 4/ 80.
(3) لسان العرب، ابن منظور: 4/ 2652.
(4) أنوار الربيع، المدني: 1/ 228.
(5) كتاب الصناعتين، العسكري: 448.
(6) أنوار الربيع: 1/ 228.
(7) المصدر نفسه: 1/ 229
(8) الجاحظ رائد البيان، علي عبد الجليل: 251.
(9) حكاية الفتى مفتاح: 34
(10) المصدر نفسه: 203
(11) المصدر نفسه: 258
(12) المصدر نفسه: 90.
(13) المصدر نفسه: 203.
(14) ينظر المصدر نفسه: 57.
(15) المصدر نفسه: 256-257.
(16) ينظر المصدر نفسه: 35.
(17) المصدر نفسه: 195-196.
(18) المصدر نفسه: 43-44.
(19) المصدر نفسه: 34.
(20) ينظر المصدر نفسه: 114- 115.
(21) المصدر نفسه: 270.
(22) ديوان المتنبي، العسيلي: 262.
(23) المصدر نفسه: 292.
(24) حكاية الفتى مفتاح: 271.
(25) المصدر نفسه: 272.
(26) ينظر المصدر نفسه: 89.
(27) السرد ووظائفه، حصة عدوان: 89.
(28) ينظر موضوع الإصلاح : 10.
(29) الخطاب في نهج البلاغة، العمري: 50.
(30) ينظر موضوع الاستطراد الاجتماعي: 11.
(31) حكاية الفتى مفتاح: 91-92.
(32) ينظر التبيان، شرف الدين الطيبي: 389.
(33) حكاية الفتى مفتاح: 203.
(34) ينظر المصدر نفسه: 256-257.
(35) ينظر المصدر نفسه: 274.
(36) رواية تيتانيكات أفريقية، السيد النور: 58.
(37) المصدر نفسه: 59.
(38) حكاية الفتى مفتاح: 90.

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289

(39) المصدر نفسه: 258.
(40) البنى السردية، عبد الله رضوان: 552.
(41) حكاية الفتى مفتاح: 89.
(42) الخطاب في نهج البلاغة، العمري: 121.
(43) حكاية الفتى مفتاح: 88.
(44) المصدر نفسه: 257.
(45) المصدر نفسه: 89.
(46) المختصر في تاريخ البلاغة، عبد القادر حسين: 35.
(47) حكاية الفتى مفتاح: 272.
(48) أبو مدين ومسيرة التحديث الثقافي، مجموعة أبحاث: 194.
(49) حكاية الفتى مفتاح: 90.
(50) المصدر نفسه: 57.
(51) المصدر نفسه: 92.
(52) المصدر نفسه: 34-35.
(53) المصدر نفسه: 34.
(54) المصدر نفسه: 274.
(55) المصدر نفسه: 274.
(56) ينظر موضوع الاستطراد الاجتماعي والإصلاحي، ص: 11-12 .
(57) أبو مدين ومسيرة التحديث الثقافي: 194.
(58) ينظر موضوع الإصلاح والتوجيه والنقد، ص: 9.

المصادر والمراجع:

1- أبو مدين ومسيرة التحديث الثقافي، أبحاث ندوة الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين بمناسبة تكريمه في المهرجان الوطني للتراث والثقافة واختياره الشخصية الأدبية للعام 1439هـ/ 2018م، إشراف عبد الله عويقل السلمي، راجعها وتابع مادتها أمين اللجنة العلمية عبد الرحمن رجا الله السلمي، د. ط، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، 1440هـ.
2- أنوار الربيع في أنواع البديع، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني (1120هـ)، حقّقه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر، ط1، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1388هـ/1968م.
3- البنى السردية دراسة تطبيقية في القصة القصيرة، عبد الله رضوان، د.ط، دروب للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2009م.
4- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، شرف الدين حسين بن محمد الطيبي(743هـ)، تحقيق هادي عطية مطر الهلالي، ط1، عالم الكتب- مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1407هـ/ 1987م.
5- الجاحظ رائد البيان العربي حياته – ثقافته - كتبه، علي عبد الجليل علي، ط1، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، 2013م.
6- حكاية الفتى مفتاح، عبد الفتّاح أبو مدين، ط1، الشركة السعودية للتوزيع، جدة، 1416هـ/ 1996م.
7- الخطاب في نهج البلاغة، عبد الحسين العمري، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان، 1439هـ/ 2018م.
8- ديوان المتنبي، شرحه وضبطه وقدّم له علي العسيلي، ط2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1425هـ/ 2005م.
9- رواية تيتانيكات أفريقية لأبي بكر حامد كهال دراسة في البنية السردية والهوية ورؤيا العالم، ناصر السيّد النور، ط1، دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع، الخرطوم، 2019م.
10- السرد ووظائفه في النثر الأندلسي، حصة عبد الله بن عدوان، ط1، كرسي الدكتور عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك سعود، 1437هـ/ 2016م.
11- علي الطنطاوي كان يوم كنت صناعة الفقه والأدب، أحمد بن علي آل مريع، ط1، شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، الرياض، 1428هـ/ 2007م.
12- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري(395هـ)، حقّقه وضبط مفيد قميحة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1404هـ/ 1984م.
13- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق علي عبد الله الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، د.ك، د.ت.

14- المختصر في تاريخ البلاغة، عبد القادر حسين، ط1، دار الشروق، بيروت – القاهرة، 1402هـ/ 1982م.
15- موسوعة الأدباء والكُتّاب السعوديين خلال مائة عام من 1319-1419هـ، أحمد سعيد بن سلم، ط2، مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)، جدة، المملكة العربية السعودية، 1420هـ/ 1999م.

Abstract

This study sheds light on the digressiveness in the story of Allfta Miftah by Abu Median, the writer and journalist who lived for years traveling. He understood the nature and the customs of people. He wrote this story as an autobiography that contains many events, incidents, and situations to prove that change is the trend of life.

As interested in the modern Saudi literature, the researcher traced all that related and gives a clear picture of the concept of advisable digressiveness and its tools of success at Abu Median.

People's nature likes versifications in handling topics for breaking the boredom, beside the vitality and motion added to the topic by the digressiveness whenever it uses the proper tools that lead to its success.

The study consists of an introduction that defines the writer and the concept of digressiveness. The other chapters are as follows: digressiveness, along speech, digressiveness of Abu Median (incentives, types, and functions), the semantic connection between the digressiveness and its topic, form, length and shortness and finally the findings of the study.

DOI:10.18018/URUK/019-12/2276-2289